التحديث والحداثة في النص الشعري

أ : سفير بدرية.*

***

يعد الشعر العربي ظاهرة فنية غريبة في تركيبها وأبنيتها، ويتطور بتطور اللغة والظروف وما يلازمها من إضافات في التقنيات والآليات التي تتداخل في صناعته، ومع مرور الزمن والعقود أصبح يطلق عليه تسميات ومصطلحات تتعلق بهذه المراحل والتغيرات التي تطرأ عليه من فترة لأخرى.

وقبل أن تحتدم معركة المصطلحات الخاصة بالشعر والتي كثيرا ما أثارت جدلا وتباينا في الرؤى والآراء والمواقف، كان لا بد من التمحيص والتدقيق في كل مرحلة مر بها الشعر العربي بدأ من القرن الثامن عشر إلى غاية الوقت الراهن، مع تحديد حيثياتها وتفاصيلها وما وقع فيها من تبدل على المستويات المختلفة التي تقوم عليها القصيدة العربية.

ومن المصطلحات التي وقع فيها نوع من الالتباس نجد: التحديث والحداثة في النص الشعري ومن هنا تتبدى إشكالية هذا الطرح –فما هو الفرق بين الحداثة والتحديث الشعري؟ وهل هناك تداخل بينهما؟ أم أن الفارق يكمن فقط في الزمن؟ وهل تعد مرحلة التحديث مرحلة تقعيد وتنظير للحداثة؟.

*- أستاذة مساعدة، جامعة تلمسان –قسم اللغة العربية وآدابها،كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

في البداية لابد من تحديد الأسبق من السابق عليه، أي المرحلة المؤسسة للمرحلة الثانية ونقصد بها مرحلة التحديث الشعري، وبمعنى أوضح أنها كانت اللبنات الأولى التي قامت عليها الحداثة الشعرية، فقد أقيمت الإصلاحات والتجهيزات المادية على مستويات مختلفة ثقافية وعسكرية وسياسية وفنية خاصة في مصر على يد محمد علي باشا الذي أرسى الخطوط الأولى للانطلاقة نحو التغيير مواكبا حضارات الغرب، وتزامنت هذه الإجراءات مع وجود، نزعات فكرية مستمدة من الفكر التنويري الفرنسي {الثورة البورجوازية }ضد الملكية الفاسدة، والتي ينادي بحرية التعبير في كل المجالات.

مع ظهور تيارات مختلفة تصرح بمواقفها اتجاه التغيرات الحاصلة، وفي هذه المرحلة أيضا وجدنا ثقافة غربية دخيلة تتسرب إلى الأدب والشعر العربي عن طريق الترجمات والمحاكاة، فبدأ الإعجاب واضحا بهذا الوافد الجديد خاصة من قبل رفاعة الطهطاوي الذي ألف كاتبه الشهير "تلخيص الإبريز في تلخيص باريس" والذي يستوضح فيه معالم هذه الحضارة الغربية المتطورة.

ومن هنا كان لابد من وقفة تأملية إذ كيف يساير المسلم العربي هذا التطور دون أن ينسلخ من مقوماته وعقيدته ؟ وهل تحققت فعليا معاني التحديث والحداثة الشعرية؟

على إثر هذه الظروف والمتغيرات في كل الأصعدة، وقع صدام عنيف بين التيارات المختلفة التي تمخضت عن هذه المرحلة الحاسمة، وهي ظهور المؤيدين والمعارضين لفكرة التغيير والمتعصبين لأفكار أخرى مستوحاة من الفلسفة الاشتراكية المنبعثة من الفكر الغربي الأوروبي بتأثير من شيلي، والتيار المنادي بالقومية وتيارات أخرى غالت في مواقفها، وأخرى حاولت التوفيق بين الأمرين، وامتد الأمر إلى الجانب

الثقافي الذي مثلته العديد من الاتجاهات لاسيما الحركات الشعرية التي بدأ يبزغ نورها مع أفول الحركات الكلاسيكية التي تقدس الماضي وتتعصب له، فظهرت روابط مختلفة مثل الرابطة القلمية وجماعة الديوان وأبولو والعصبة الأندلسية، وكان لكل منها رؤية خاصة حول الشعر، وهي مرحلة يمكن تسميتها بمرحلة التنظير للشعر الجديد".

فتميزت هذه الحقبة الزمنية بجو خانق من الصراعات الفكرية، خاصة في مستويات الشعر من حيث الشكل والمضمون واللغة فكان الشاعر المحافظ يستمد قوته من القصيدة العربية القديمة ينظم على أعارضيها وبحورها ومواضيعها في حين كان التيار المعاكس يتمرد على هذه القيود التي أوغلت الشعر في التكلف والديباجة الجوفاء التي وجد فيها عائقا أمام تطور الشعر، وكانت هذه المرحلة من التحديث الشعري تنبئ بميلاد عهد جديد أطلق عليه بالحداثة الشعرية والتي تختلف في زمنها وظروفها عن المرحلة السابقة.

أما الحداثة هي "حركة أو مجموعة من الحركات الفنية الطليعية في الأدب والفن ظهرت في مواقع مختلفة من العالم الرأس مالي الغربي منذ أواخر القرن الماضي"[1] عرفها ياوس على" أنها مترسخة في الثقافة الغربية ملتزمة باستخراج معايرها من ذاتها[2] " وهي عند محمد بنيس "اختراع أوروبي "[3] وقد جسدت في مفهومها، التمرد والانقلاب والثورة على ما هو سائد ومألوف، كما عملت على تصوير الهاجس

---

[1]- فخري صالح: دراسات نقدية في أعمال "السياب، حاوي، دنقل"- المؤسسة العربية للدراسات والنشر –بيروت ط1-ت1996 ص40.

[2] - Jaus {Herbert}.pour une esthétique de la réception Gallimard. paris 1978p159.

[3]- محمد بنيس :حداثة السؤال، المركز الثقافي العربي، بيروت – الطبعة 2-1988ص41.

البشري، خاصة الإنسان العربي الذي عرف معاني الانكسار والاستغلال والذل والنكبات التي أغرقت العديد من الأبرياء في دمائهم ومنها النكبة الفلسطينية، هذا إلى جانب الانهزام المتواصل في الوطن العربي الموبوء بالحروب والصراعات التي استنزفت ثرواته وطاقاته، فالحداثة الشعرية هي رصد هذه الوقائع بجرأة ووعي بطريقة شعرية قادرة على وصف معاناة المجتمع مع تجسيد الانفعالات والأحاسيس التي تخترق الشاعر الذي يعيش هذا الواقع ويزدريه ويتنكر له.

وقد عرفها أدونيس على أنها "رؤيا جديدة وهي جوهرية.....رؤيا تساؤل واحتجاج، تساؤل حول الممكن واحتجاج على السائد "[1] وهذا ما ذهبت إليه خالدة سعيد التي أقرت بأن "الحداثة تبدأ من اكتناه الذات وتنتهي برفض العالم"[2].

إذا فالحداثة هي مفهوم فرضته الظروف الحاصلة ومتغيرات العصر التي أصبحت بحاجة ماسة إلى من يمتلك القدرة على تسخير هذه المعطيات في الكشف عنها بطرف فنية تنم عن ابتكار للمعاني بلغة فيها إيحاء ومغزى، تتدفق منها الدلالات التي تتخفى وراء آليات جديدة منها الرمز والتورية والقناع والمرايا، كلها مصطلحات جديدة تداخلت في الشعر العربي المعاصر، وتمركزت حول نقطة واحدة هي إخراج القصيدة من شكلها البائد والانطلاق نحو أفق أرحب يجوب فيه الشاعر بخياله الواسع، ليقتفي أثر الصور الشعرية التي يسكب فيها معانيه وأفكاره.

---

[1]- أدونيس :صدمة الحداثة :دار العودة -بيروت-د،ط-ت 1983ص32.

[2]- خالدة سعيد:الحداثة أوعقدة جلجامش-مجلة مواقف –العدد 51-52- ت:1984ص30.

وممن عرف الحداثة مشري بن خليفة الذي يقول عنها: "هي تجربة مجتمعة متداخلة ضمن سياقات تاريخية وتحولات معرفية "[1].

وقد أراد بهذا القول أن الحداثة هي عبارة عن تراكمات على مستويات مختلفة سياسية وثقافية وتاريخية، خلقت تغيرا في المجتمع وفي طرق تفكيره وحولت أنظاره إلى حضارة الغرب. غير أن هذا التحول لم يأت دفعة واحدة بل مر بمراحل مختلفة يقول عبد الله عروة :"الحداثة بناء نظري مأخوذ من مجتمع أخر وليس مندمجا برمته، وفي الواقع أنه في طريق أن يصبح كذلك"[2].

وقد كانت الحداثة العربية كنتيجة حتمية للحداثة الغربية غير أنها في بداية الأمر، لم تكن سوى شعارات مرفوعة مبهمة في جوهرها بعيدة عن حقيقتها وهذا ما أكده السيد الدحراوي الذي قال: "لم يخل هذا الشعار من التناقضات التي تهدمه من داخله "[3]، ولعل هذا الفهم الناقص لمفهوم الحداثة يعود في الأصل إلى اختلاف التجربة بين المجتمع الغربي والمجتمع العربي، والمفارقات شاسعة بين الاثنين، ودليل هذا الواقع أن الإنسان الأوروبي يعيش حالة من الانعزال الذاتي بعيدا عن مجتمعة وهي وضعية يستأنس لها ويستكين، في حين أن الإنسان العربي متصل بوطنه وأرضه وعقيدته ،ولكنه معزول عنوة عن هذا المجتمع الذي ينسل من بين يديه بحكم الاحتلال والسيطرة، ورغم هذا إلا أن تواجده الروحي يبقى مستمرا دون أن تحدث

---

[1]- مشري بن خليفة:القصيدة العربية في النقد العربي المعاصر ومنشورات الاختلاف –ط1-2006-ص25.

[2]- محمد برادة : اعتبارات نظرية لتحديد مفهوم الحداثة –مجلة فصول –ج1العدد 4 ص16.

[3]- فخري صالح: دراسات نقدية في أعمال "السياب، حاوي ،دنقل" - ص58.

قطيعة، ومن خلال هذه التجارب لم يستطع الشاعر العربي في بداية الأمر أن يستوعب فكرة الحداثة وأن يطبقها في حياته وفي انتاجاته الفنية.

فكانت المرحلة الأولى عبارة عن محاكاة وتقليد للنتاج الغربي في الشعر لا يخل من المغالاة والسطحية، خاصة بعد ذيوع الترجمات التي انتشرت بقوة في أوساط المبدعين والكتاب والقراء على حد سواء وقد كان أثر ت.س.اليوت ولوركا وستويل واضحا على النماذج الأولى للشعر الحداثي،

وقد قسمت الحداثة إلى مراحل هي:

-**المرحلة الأولى:** أو الأبولونية وهي تجربة الشعراء الرواد في أواخر الأربعينات وعمقتها تجربة شعراء الخمسينات والتي اتسمت بنوع من التجديد في الأساليب والأبنية كالتضمين والقناع والانزياح والدراما مع الإفاضة في الدلالات الأسطورية وقد تميزت هذه المحاولات بغموض وإبهام شمل معاني القصائد.

-**المرحلة الثانية:** تسمى بالرؤيوية أو الديونيسية وقد شاعت في الستينات وقد غلب عليها طابع المراثي والحسرة فتميزت بالانعزال الذاتي والابتعاد عن الجماعة وعن النزعة العقلانية.

-**المرحلة الثالثة:** ويمثلها الوقت الراهن بنزعاته وأماله وإبداعاته مع الفهم الحقيقي لمصطلح الحداثة التي تنبع من الواقع وترصد الحياة الآنية بلغة فيها ابتكار وإبداع.

وتتلخص أساسيات الحداثة في النقاط التالية :

-**الحداثة في اللغة:** بحيث تحولت لغة الشعر إلى لغة إبداع وخلق تستمر في تطورها بتوليد صياغات جديدة مع€ الخروج عن قواعد

اللغة وخرق قوانينها النحوية وهوما يسمى بالهدم وإعادة البناء من أجل تحريك اللغة العربية.

-الاعتماد على الانزياح عن المألوف مع تطبيق قاعدة أساسية هي" التبسيط اللغوي مع العقيد الدلالي".

-تختزل لغة الشعر كل مكونات القصيدة "من خيال وصور وموسيقى ومواقف "[1]

-تفعيل اللغة وذلك بالمزج بين التشكيلات النوعية لها أي بإدخال المصطلحات العامية التي تنفرد بإيحائية نادرة وخصوبة أثرت القصائد العربية مع الاعتماد على مصادر جديدة كالكتاب المقدس والتراث العالمي كالأسطورة والشعبي كالفولكلور.

-**الحداثة في الأوزان**: وذلك بالخروج عن القافية والوزن وإلغاء نظام التفعيلات

-**الحداثة على مستوى الأجناس:** بحيث تداخلت الأجناس النثرية مع الشعر والعكس صحيح فظهر ما يطلق عليه بالشعر المنثور والنثر الشعري وهذا "باختراق الحدود بين الشعر والنثر[2]

-**الحداثة في الأساليب الشعرية:** والتي تعتمد على الإبداع والابتكار في استخدام الأساليب الشعرية.

ومن هذا الطرح يمكن القول أن الحداثة قد مست الشعر في بنياته الداخلية والخارجية، وخير نموذج يمكن أن ندرس من خلاله تطور الشعر الحداثي هو الشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي بحيث كانت

---

[1]- السعيد الورقي :لغة الشعر العربي الحديث ومقوماتها وطاقاتها الإبداعية، دار النهضة –بيروت-ط1-1984ص5.

[2]- محمد بنيس: الشعر العربي الحديث وبنياته وإبداعاته "الرومانسية العربية" –دار توبقال للنشر –الدار البيضاء-ط1 ص33.

كتاباته الشعرية موازية لكل مرحلة من مراحل الحداثة من المحاكاة والتقليد إلى الإبداع والتألق.

فقد كانت بداياته كغيره من الشعراء بسيطة سطحية وسرعان ما ارتطمت هذه المحاولات، خاصة في مجموعته الشعرية "ملائكة وشياطين "مع نقد ساخن هاجمه بقوة ،فقد حاول تطبيق النموذج الأليوتي، حيث اعتمد في قصائده على تقنيات جديدة مثل" الأساطير "غير أن توظيفها كان أبعد ما يكون عن الفهم الحقيقي من استخدام هذه الأبعاد المعرفية، التي يعد اعتمادها في الشعر ذو حدين، فقد تستثير القارئ وتجلبه إليها، وقد تنفره وتبعده عنها، لأن الاستعانة بمثل هذه الأدوات قد يخرب القصيدة إذا لم يحسن توظيفها وتركيبها في نسق متضام من المعاني والدلالات.

فكانت قصائده لا تخلوا من النزعة الفردية، التي تنئ عن الجماعة غارقة في نزعتها التشاؤمية المحبطة وغلوه في معاني الموت والتشاؤم والحب وتتضح هذه المعاني في مثل قوله :

قلبي الحزين
عرفت ما فيه
الحب مات
ولم تزل فيه
ذكرى تشوش في صحاريه[1]

ويقول في موضع أخر:

أرى يدا سوداء تصفعني
وتشد شعري شد منتقم
وأرى غطاء القبر منتفخا

[1]- عبد الوهاب البياتي الديوان –ج1-دار العودة بيروت –ص20.

وجحافل الديدان كالظلم[1]

فقد أخد موضوع الموت حيزا واسعا في هذه المجموعة الشعرية والتي كانت تبتعد بصورة جلية عن الواقع الذي يعيشه إذ لم تتجسد فكرة الحداثة الأساسية والتي نعني بها رصد الواقع وتصوير حقائقه، هذا إلى جانب أن الإيقاع لذي تتأسس عليه هذه المقاطع تأخذنا إلى موسيقى القصيدة الكلاسيكية فهو في هذه المرحلة بقي متواصلا بطريقة لاشعورية مع الشعر القديم، ورغم هذا إلا أن كتاباته استمرت في محاولات دؤوبة فكتب العديد من القصائد منها:

غير أن المتأمل للمجموعة الشعرية أباريق مهشمة سيلحظ التغير الجوهري في شعر البياتي الذي جعل منه في طليعة رواد الحركة الشعرية المعاصرة ،فقد استطاع الشاعر عبد الوهاب البياتي أن يرتكز في بناءاته الشعرية على المفهوم الحقيقي للحداثة ،متناولا موضوعات من الأحداث المستثارة من حواله، مستعينا بتقنيات جديدة منها توظيفه لتشكيل لغوي متنوع اللهجة العراقية واللغة العربي الفصحى واعتماده على تراكمات الأدب الغربي القديم كالأساطير الإغريقية واليونانية منها أسطورة "أسبارتاكوس"ذلك البطل الذي تمرد على الروم فأوقع بهم هزائم نكراء لأنهم نكلوا بشعبه وذبحوا أطفالهم ونساءهم، فقام بتحريض العبيد للانقلاب والثورة على الروم، ومن هذا المشهد الدرامي والملحمي، يستوحي الشاعر قصيدته التي يدعو فيها الشعوب المغلوبة على أمرها بالتحرك والتمرد، على الطغاة من حكام ومستعمرين.

وقد قدمت مثل هذه النماذج الشعرية التي تمثل بحق مرحلة نضج للشاعر ماهية الحداثة الشعرية التي تستوفي آليات وبدائل تختزل

---

[1]- م ن ص112.

العبارة والفكرة والنص بكامله في بؤرة مركزية تدور حولها المعاني وظلالها.